المقتبس

مدن العرب

يظن بعض الجاهلين والمتجاهلين لحسنات المدنية الاسلامية ان العرب بأن هم لم يأتوا شيئاً يذكر في اعمال العمران وان قصارى ما فعلوا نقل المدنية الفارسية واليونانية وقاموا بها بضعة قرون ثم نقلوها الى من جاءهم من امم المدنية الحديثة في الغرب ويقول بعضهم انهم كانوا في فن البناء دون الرومان وان قصورهم الباقية لا تكاد تعد ولا يحقق عجب في المقدمة على ان البقايا من آثارهم الى اليوم في الاندلس ومصر والشام والعراق وفارس والهند تشاهد لذي العين بطل دعوى المدعين وما يحيك في صدورهم من الاهواء .

ولقد رأيت بعضهم يتكأون في الحط من اقدار العرب في العمران على الفصل الذي عقده ابن خلدون في مقدمته في « ان العرب اذا تغلبوا على الاوطان اسرع اليها الخراب » الذي قال في آخره « وانظر الى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الاوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه واقفر ساكنه وبدلت الارض فيه غير الارض فاليمن قرارهم خراب الا قليلاً من الامصار وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس اجمع والشام لهذا العهد وكذلك افريقية والمغرب لما جاز اليها بنو هلال وبنو سليم منذ اول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خراباً كلها بعد ان كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمراناً تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمداشر » .

هذا ما يحتجون به ولو علموا ان مقصد ابن خلدون بالعرب هنا الجيل او البادية او العربان الرحل كما يسميهم لهذا العهد لارتفع كل اشكال ولاولوا المدن التي مدنها العرب

آباء هم والاعمال التي مصروها والقرى التي عمروها لا تدخل تحت حصر في كل قطر دخلوه ولو انّا نجاهر بتيسير العيم من الامر كانترك مثلا الذين حكموا الاقطار الواسعة العامرة بطريقتها ستمائة سنة ولا تكاد تعرف لهم مدينة أسسوها ولا مواثبا أنشئوه ولا عاديا احالوه وشغلوا الشاهل حروب دارت حكمها عهروا بالقوة وسقطوا الحال زمن الضعف .

ومن قرأ كتب وصف البلاد تجلى له مقدار عناية العرب ببناء مدنهم فدلك على سبيل المثال ما رواه الاقدمون في كيفية بناء سامرا او سر من رأى احدى المدن العباسية التي أنشئت على دجلة على مسافة ثلاثين فرسخا من بغداد فقد قالوا ان السفاح أراد ان يبني سامرا على مدينة الانبار فعدلها واراد المنصور بعد ما أسس بغداد بناءها بالقرب منها في البردان ثم بدا له وبنى بغداد واراد الرشيد بناءها فبنى عليها قصراً وهو بازاء اثر عظيم الذي كان للاكاسرة ثم جاءها المعتصم ونزلها في سنة ٢٢١ وكان الرشيد حفر نهراً عندها ساه القاطول وأتى الحفر وبنى عنده قصراً ثم بنى المعتصم ايضاً هنالك قصراً ووجه لولاة الناس فلما ضاقت بغداد عن عساكره واراد احداث مدينة كان هذا الموضع على خاطره فجاءه وبنى عنده سر من رأى بني دارا وامر عسكره بمثل ذلك فعمر الناس حول قصره حتى صارت اعظم بلاد الله وبنى بها مسجداً جامعاً في طرف الاسواق وانزل الناس من ضم اليه من قواد كرخ سامرا وهو كرخ فيروز والقم ابنه الواثق سامرا حتى مات بها ثم بني المتوكل دار المعروفة وبني بها ابنية كثيرة واقطع الناس في ظهر سر من رأى في الحير الذي كان احتجره المعتصم واتسع الناس بذلك وبنى مسجداً جامعاً اعظم النفقة عليه وامر برفع منارة لتعلو اصوات المؤذنين فيها وحتى ينظر اليها من فراسخ فجمعوا الناس فيه وتركوا المسجد الاول واشتق من دجلة قناتين شتوية وصيفية تدخلان الجامع وتتخللان شوارع سامرا واشتق نهراً آخر وقدره ان يحول الى الحيرات فبنى المتوكلية وطول المنتصر فيمه فلقصر ايامه لم يتم واختلف الامر بعده فبطل وكان المتوكل انفق عليه سبعمائة الف دينار

ولم يبن احد من الخلفاء بسر من رأى من الابنية الجليلة مثل ما بناه المتوكل فمن ذلك القصر المعروف بالعروس انفق عليه ثلاثين الف الف درهم والقصر المختار خمسة آلاف الف درهم والوحيد الفي الف درهم والجعفري المحدث عشرة آلاف الف درهم والغريب عشرة آلاف الف درهم والشيدان عشرة آلاف الف درهم والبرج عشرة

آلاف ألف درهم والمنصور خمسة آلاف ألف درهم والمهدي خمسة آلاف ألف درهم وقصر [illegible] آلاف ألف درهم [illegible] خمسة آلاف ألف درهم [illegible] خمسمائة ألف درهم [illegible] عشر ألف ألف درهم [illegible] عشرين ألف ألف درهم [illegible] خمسين ألف دينار [illegible] ثلاثة آلاف دينار [illegible] ألف ألف درهم [illegible] ألف ألف درهم [illegible] عشرين ألف ألف درهم [illegible] خمسة آلاف ألف درهم [illegible] ألف ألف درهم

[illegible] الشعراء أن يمدحوا [illegible]

[illegible]

وقال [illegible]

[illegible]

وله فيها ويفضلها على بغداد :

الا مر من راه المصيف تحية	محللة من مغرم بهواها
الا هل لمشتاق ببغداد رجعة	تقرب من ظليليها ودراها
خلال انى الله خير عباده	عزيمة رشد فيها فاصطفاها
وقولا لبغداد اذ ما تنسمت	على اهل بغداد جعلت فداها
الى كل يوم يوسف يبتني بالقفا	حروبك حتى راني بقذاها

قال ياقوت ولم تزل كل يوم سر من رأى في صلاح وزيادة وعمارة منذ ايام المعتصم والواثق الى آخر ايام المنتصر بن المتوكل فلما ولي المستعين وقويت شوكة الاتراك واستبدوا بالملك والتولية والعزل وانفسدت دولة بني العباس لم تزل سر من رأى في تناقص للاختلاف الواقع في الدولة بسبب العصبية التي كانت بين امراء الاتراك الى ان كان آخر من انتقل الى بغداد من الخلفاء واقام بها وترك سر من رأى بالكلية المعتضد بالله امير المؤمنين كما ذكرناه في التاج وخربت حتى لم يبق منها الا موضع المشهد الذي تزعم الشيعة ان به سرداب القائم المهدي ومحلة أخرى بعيدة منها يقال لها كرخ سامرا وسائر ذلك خراب يباب يستوحش الناظر اليها بعد ان لم يكن في الارض كلها أحسن منها ولا اجمل ولا اعظم ولا آنس ولا اوسع ملكاً منها فسبحان من لا يزول ولا يحول .

وذكر الحسن بن احمد المهلبي في كتابه المسمى بالعزيزي قال وانا اجتزت بسر من رأى منذ صلاة الصبح في شارع واحد ماد عليه من جانبيه دور كأن اليد رفعت عنها للوقت لم تعدم الا الابواب والسقوف فاما حيطانها فكالجدد فما زلنا نسير الى بعد الظهر حتى انتهينا الى العمارة منها وهي مقدار قرية يسيرة في وسطها ثم سرنا من الغد في مثل تلك الحال فما خرجنا من آثار البناء الى نحو الظهر ولا شك ان طول البناء كان اكثر من ثمانية فراسخ .

وكان ابن المعتز محبا لها آسفا على ما آل اليه امرها متأسفا عليها وله كلام منثور ونظم في وصفها ولما استمر امرها بسبب النقص وتحول الناس الى بغداد وبصرها قال ابن المعتز :

قد اقفرت سر من رأى	وما لشيء دوام
فالنقض يحمل منها	كأنها آجام
ماتت كما مات فيل	تسل منه العظام

وكتب على وجه حائط من حيطان سامرا الخراب

حكم الضيوف بهذا الربع انفذ من حكم الخلائف آبائي على الامم

فكل ما فيه مبذول لطارقه ولا ذمام به الا على الحرم

وكتب عبد الله بن المعتز الى بعض اخوانه يصف سر من رأى ويذكر خرابها ويذم بغداد واهلها ويفضل سامرا : كتبت اليك من بلدة قد انهض الدهر سكانها واقعد جدرانها فشاهد اليأس فيها ينطق وحبل الرجاء فيها يقصر فكأن عمرانها يطوى وكأن خرابها ينشر وقد وكلت الى الهجر نواحيها واستحث باقيها الى فانيها وقد تمزقت باهلها الديار فما يجب فيها حق جوار فالظاعن منها ممحو الاثر والمقيم بها على طرف سفر نهاره ارجاف وسروره الخلاء ليس له زاد فيرحل ولا مرعى فيرتع فحالها تصف للعيون الشكوى وتشير الى ذم الدنيا بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الارض وقرارة الملك تفيض بالجنود اقطارها عليهم اردية السيوف وغلائل الحديد كأن رماحهم قرون الوعول ودروعهم زبد السيول من خيل تأكل الارض بحوافرها وتمد بالنقع ساترها قد نشرت في وجوهها غرراً كأنها صحائف البرق وامسكها تحجيل كاسورة اللجين ونوطت عذراً كالشنوف في جيش يتلقف الاعداء أوائله ولم ينهض أواخره وقد صب عليه وقار الصبر وهبت له روائح النصر بصره ملك يملأ العين جمالاً والقلوب جلالاً لا تخلف مخيلته ولا تنقض مريرته ولا يخطئ بسهم الرأي غرض الصواب ولا يقطع بطابا اللهو سفر الشباب قابضاً بيد السياسة على قطار ملك لا ينتشر حبله ولا يتشظى عصاه ولا تطفى جمرته في سن شباب لم يجن مأثما وشيب لم يراهق هرما قد فرش مهاد عدله وخفض جناح رحمته راجماً بالعواقب الظنون لا يطيش عن قلب فاضل الحزم بعد العزم ساعياً على الحق يعمل به عارفاً بالله يقصد اليه مقراً للحلم ولديه قادراً على العقاب ويعدل فيه الى الناس في دهر غافل قد اتصلت نعم سيئة لينة الحواشي خشنة المرام تطحنها الجلة العسرى وذهب فيها نسيم الحبور فالاطراف على مسرة والنظر الى مبرة قبل ان تحت مطايا الغير وتسفر وجوه الحذر وما زال الدهر مليئاً بالنوائب طارقاً بالعجائب يؤمن يومه ويغدر غده على انها وان جفت مشوقة السكنى وحبيبة المثوى كوكبها يقظان وجوها عريان وحصاها جوهر ونسيمها معطر وترابها مسك أذفر ويومها غداة وليلها سحر وطعامها هنيء وشرابها مريء وتاجرها مالك وفقيرها فاتك لا كبغداد الوسخة الومدة الحوالة جوها نار وارضها خبار ومياهها حميم وترابها سرجين وحيطانها نزوز وتشرينها تموز فكم من شمسها

عن ... ق ... من ... [illegible]
أيضاً ذلك ... [illegible] ... ولا يحل ...
... [illegible] ... الفاس ، بكل مكروه
... [illegible] ... من الاسم وعد ... [illegible] ... ولم
في فرحة ... [illegible] ... في كل حال

... [illegible] ... | فقالك من ذكرى حبيب ومنزل
... [illegible] ... | ... من جنوب وشمال
... [illegible] ... | ... [illegible] ... وتجمل

ويطول ... [illegible] ... كلها من شواطئ بحر الظلمات في الغرب ... المحيط الهندي في الشرق ... [illegible] ... ومن يحصي ... [illegible] ... الا الله عز وجل وهنا ... عدن ... [illegible] ... التي أحدثت في الاسلام ... الهند ... [illegible] ... عدن الهند والصين والروم والترك وليس كل مدينة ... [illegible] ... حدودها و باسم ... [illegible] ... تلك مدينة فيها ... [illegible] ... والكوفة مصرها سعد بن أبي وقاص ... [illegible] ... البصرة مصرها عتبة بن غزوان ... [illegible] ... كانت في ... [illegible] ... واسط ... [illegible] ... البصرة والكوفة وبغداد سميت باسم موضع كان قبلها ... [illegible] ... مدينة السلام ... [illegible] ... من بناها جعفر المنصور ... [illegible] ... حولها ... [illegible] ... وزادت ... [illegible] ... حول ... في الجانب الشرقي ... [illegible] ... والبناء .

... [illegible] ... والكلاء و ... [illegible] ... تقدت واحدة من هذه ... [illegible] ... قال بعض العراقيين : مصرت البصرة ... عتبة بن غزوان سنة أربع عشرة ... [illegible] ... سميت ... الأحجار ... [illegible] ...

الحجاج بن يوسف سنة ثلاث وسبعين وهي مدينة [illegible] في دجلة غربية سنة [illegible]
والموت ذا الأودية [illegible] فيه بني [illegible] مدينة
قريبة من الكوفة [illegible] ثم [illegible] الأنبار [illegible]
إلى أن [illegible] المنصور [illegible] فقال [illegible]
سماه دار العدل [illegible] الدول وسميت مدينة السلام لا [illegible]
فيها على الخلفاء ولأنها [illegible] السلام وفي تسميتها بغداد وبغداذ وبغدان وكان
ابتداء بنائها في سنة خمس وأربعين ومائة [illegible]
بالقتل والرعية [illegible] المهدي [illegible] المنصور مدينة [illegible] الرصافة سنة احدى
وخمسين وبغداد من [illegible] هبيرة مدينة [illegible] يزيد بن عمر
ابن هبيرة

والبلد الآن [illegible] العرض من [illegible]
وهي مدينة إسلامية بناها محمد بن [illegible] الثقفي [illegible] ومدينة [illegible]
الرشيد [illegible] سنة ثلاث وثمانين وكان
مكتوبا [illegible]
الحروف [illegible]

والمنصورة [illegible] كان
[illegible] الدولة
صدقة بن [illegible] سنة خمس [illegible] ومائة [illegible] فيها
من الشيعة [illegible] مصرها [illegible] الرشيد [illegible]
باسم [illegible] الحكم وكان [illegible]
[illegible] الضحاك
ومن بلاد [illegible]
[illegible]
ابن [illegible] الخطاب [illegible] مصر
مدينة [illegible] سنة خمس [illegible] الأول [illegible]
مدينة واحدة [illegible]
يروون منه في [illegible] سنة سبعين

وتسعمائة . وكذلك بلاد مهرة ومصرها خفار بناها احمد بن محمد وسماها الاحمدية في سنة عشرين وستمائة .

وجدد قتيبة بن مسلم سمرقند واحاط بها سوراً دوره سبعون الف ذراع وذلك سبعة عشر ميلاً ونصف ميل هو بالفرسخ نحو ستة فراسخ ومدن بخارى كرمينية و بيكند والطواويس بناها قتيبة بن مسلم ايضاً . ومن مدن خراسان الجليلة ذوات الكور العريضة والاعمال الفسيحة سرخس وبوزجان وسلمان و بيورد مدينة وروزنة وكومن بناها عبد الله بن طاهر . كما بنى مدينة شهرستان من اعمال خراسان وبنى في اقليم مازندران دهستان ثغراً الى طرف مفازة كما بنى يزيد بن المهلب سنة ثمان وتسعين مدينة بكراباد في ذلك الفتح نفسه

وبنى عمرو بن العاص الفسطاط (مصر) وبنى احمد بن طولون القطايع ولما ملك العبيديون مصر بنى جوهر مولى المعز مدينة فوق القطايع وسماها القاهرة . وفي افريقية مدينة المهدية بناها المهدي العبيدي سنة ست وثلاثمائة ومدينة بونة بنيت بعد الخمسين واربعمائة ومدينة بجاية وهي مدينة حسنة البناء طيبة الفناء بناها الناصر بن علناس احمد بن حماد سنة سبع وخمسين واربع مائة . ومدينة وهران بنيت سنة تسعين ومائتين . ورباط الفتح في سلا من اعمال طنجة بناها عبد المؤمن وقصر الفرج بناه المنصور من بني عبد المؤمن . والسوس الاقصى يقال ان اول من عمره واجرى فيه الانهار عبد الرحمن بن مروان بن الحكم وفيه مدن كثيرة وقصبتها تامدلت مدينة سهلية جبلية مسورة من بناء عبد الله بن ادريس . ومن بلاد السوس مدينة ايجلي بانيها عبد الله بن ادريس ايضاً ومراكش بناها يوسف بن تاشفين الصنهاجي سنة ٤٩٠ وبين مراكش فاس وهي مدينتان احداهما عدوة الاندلس بنيت سنة ٢٩٢ والاخرى عدوة القرويين بنيت سنة ثلاث وتسعين ومائة . وسوق حمزة بناها حمزة بن سليمان العلوي واشير بناها زيري والمسيلة بناها محمد بن عبيد الله المهدي المعروف بالقائم وسماها المحمدية وقلعة بني حماد بناها حماد بن زيري والقيروان اختطها عقبة بن نافع ومدينة بطليوس بالاندلس بناها عبد الرحمن بن مروان ومدينة تطيلة بنيت ايام الحكم بن هشام والمطروحة من اعمال المالكية بناها هارون الرشيد

وسلمية بالشام على سيف البرية بناها عبد الله بن صالح وعلي بن عبد الله بن عباس وطرابلس المستجدة بعد فتح طرابلس الشام بجيش المسلمين في مملكة الملك المنصور سيف

الدين قلاوون الصالحي بنيت في سفح ذيل من اذيال جبل لبنان مكونة من كوا طرابلس بعيدا عن طرابلس القديمة العربية نحو من خمسة اميال على شاطئ نهر يجري الى البحر وهي المدينة المعروفة اليوم البعيدة عن الميناء المعروفة بميناء طرابلس الشام والمعسكر طرسوس الثغر من معاوية بن ابي سفيان في ايام عثمان بن عفان حين غزا قبرص ومدينة عكا بناها عبد الملك بن مروان ومرعش من بناء خالد بن الوليد وجددها مروان ابن الحكم ثم المنصور بعده وسميت الثغور لان المسلمين من اهل الثغور كانوا يرابطون فيها و يغزون مدن الروم ، واذنة اختطها الرشيد على نهر سيحان .

وطرسوس بنيت في ايام هارون الرشيد والمصيصة بناها المنصور وعسكر مكرم بناها مكرم بن مطرف العمي فصارت مدينة ونسبت اليه .

ومدينة الافلام بافريقية مدينة احدثها آل ادريس وسلا مدينة احدثها علي ابن الاندلسي بعد عهده ثم تخطاه وهي المرية من الاندلس محدثة ومدينة الزهراء بناها عبد الرحمن بن محمد خط فيها الاسواق كما قال ابن حوقل وابتنى الحمامات والخانات والقصور والمتنزهات واجتلب اليها العامة وامر مناديه بالنداء الا من اراد ان يبني دارا او يتخذ مسكنا بجوار السلطان فله اربعمائة درهم فتسارع الناس الى العمارة فتكاثفت وترادفوا فيها حتى كادت ان تتصل الابنية بين قرطبة والزهراء .

هذا ما انقطعناه في هذه العجالة ولعل بعض الباحثين يتوسعون في هذا الموضوع في رسالة على حدة يذكرون فيها جميع ما احدثه العرب من الامصار والقرى والمعالم العمران كالطرق والحصون والانهار والترع وغير ذلك مما يدل على تمصير المدنية العربية ويدعو الاخلاف الى الفخر بما قام به الاسلاف .